مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

اسم المقال: نبويات ابن حجر العسقلاني بين التقليد والتجديد دراسة موضوعية وفنية
اسم الكاتب: ماهر أحمد المبيضين
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/9016
تاريخ الاسترداد: 2026/06/07 09:19 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

جامعة الشارقة
ملتقى الحضارات

مجلة جامعة الشارقة

دورية علمية محكمة

للعلوم الإنسانية والاجتماعية

عدد A

المجلد 16، العدد 2
ربيع الأول 1441 هـ / ديسمبر 2019 م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 1996-2339

ديسمبر 2019م **مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية** المجلد 16 العدد 2 (A)
https//:doi.org/10.36394/jhss/16/2A/2

نبويات ابن حجر العسقلاني بين التقليد والتجديد: دراسة موضوعية وفنية

ماهر أحمد المبيضين

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة الشارقة

الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

تاريخ الاستلام: 17-01-2018 **تاريخ القبول: 28-03-2018**

ملخص البحث:

تتناول هذه الدراسة مظاهر من التقليد والتجديد في نبويات ابن حجر العسقلاني، وهي القصائد التي تصدرت ديوانه الشعري ونظمها في مدح النبي الكريم عليه السلام، دراسة موضوعية وفنية، حيث يعد ابن حجر أحد أبرز علماء عصره إلى جانب أنه قد نظم الشعر في أغراض مختلفة فأحسن فيه وأجاد .

ولمَّا كان ابن حجر حافظا لكتاب الله عز وجل وباحثا في علومه وعلوم الحديث النبوي الشريف فإنه قد بسط القول في مديح النبي عليه السلام، فجاء بمضامين حافلة بمكانة النبي عليه السلام ومعجزاته وآثار مولده، وأخلاقه وغزواته، وإسرائه ومعراجه، كما أنه قد خص صحابته والتابعين وأصحاب كتب الحديث بمديحه، و كان في أكثر الأحيان مقلدا لشعراء عصره، ومجددا في أحيان أخرى موضوعيا وفنيا.

كما تناولت الدراسة أبرز السمات الفنية التي امتازت بها نبويات ابن حجر، فتمت دراسة الألفاظ والأساليب والصور الفنية والتشبيهات، وكذلك المحسنات البديعية وبناء القصيدة مقدمة وخاتمة، وقد تبين للباحث أن ابن حجر في هذا الباب أيضا بدا أكثر تقليدا لشعراء عصره، دون أن نعدم وجود بعض مظاهر التجديد وبخاصة في بناء النص الشعري، وقد بدا ذلك جليا في ضوء استقراء النصوص الشعرية وتحليلها.

الكلمات الدالة: ابن حجر، نبويات، التقليد، التجديد، الصور الفنية، التشبيهات.

المقدمة:

برز في العصر المملوكي مجموعة لا بأس بها من الشعراء الذين اعتنوا بفن المديح النبوي، حتى غدا هذا الفن ظاهرة من الظاهر الأبية اللافتة في ذلك العصر، ومن اللافت أيضا ظهور مجموعة من العلماء الشعراء الذين اهتموا بدراسة كتاب الله عز وجل وعلوم الحديث الشريف سعيا للتفقه بأمور الدين والتقرب بها إلى الله عز وجل، وقد كان من بين هؤلاء من نظم الشعر بأغراضه المتنوعة وأجاد في نظمه، وبخاصة غرض المديح النبوي، ومن هنا فإن هذه الدراسة جاءت لتنهض بدراسة نبويات ابن حجر العسقلاني أحد أبرز هؤلاء العلماء الشعراء من جانبي التقليد والتجديد، وذلك لأن هذا القسم بالذات يعد أهم أقسام المديح عند ابن حجر الذي جعله في أقسام متنوعة، حيت سيتم دراسة هذه النبويات دراسة موضوعية وفنية، بغية التعرف إلى أبرز ملامح التقليد والتجديد فيها، وقد تضمنت الدراسة المحاور الآتية:

أولاً:

تمهيد تناول فيه الباحث جانبا من حياة ابن حجر العسقلاني ونشأته العلمية بما يخدم موضوع الدراسة، وستعرض الدراسة هنا ما يتعلق بمولد ابن حجر ووفاته وعلومه ومصنفاته، وبيان مكانته الأدبية وصلته بالشعر على وجه التحديد، إلى جانب تسليط الضوء وباختصار على ديوانه الشعري والأغراض الشعرية التي نظم فيها.

ثانيا: الدراسة الموضوعية.

حيث يتناول البحث في هذا الفصل ما اشتملت عليه نبويات ابن حجر من مضامين وأفكار، من ذلك حديث الشاعر عن مولد النبي الكريم وما رافقه من ظواهر كونية ومعجزات، والحديث عن معجزاته وغزواته وما حل بالشرك والمشركين، ثم الحديث عن مكانته عليه السلام عند الله عز وجل وأفضليته على باقي الرسل والأنبياء، وإسرائه ومعراجه، إلى جانب ما خص به أصحاب النبي عليه السلام والتابعين وأصحاب كتب الحديث النبوي الشريف من مدح.

هذه المضامين سيتم استخلاصها ودراستها وبيان ما جاء فيها من ملامح التقليد والتجديد في ضوء تحليل النماذج الشعرية الدالة، فضلا عن بيان موقف الشاعر منها ومدى تفوقه في عرضها.

ثالثا: الدراسة الفنية.

تكشف الدراسة في هذا الفصل عن أبرز ما امتازت به نبويات ابن حجر من سمات فنية، مع ترصد وتتبع مظاهر التقليد والتجديد فيها، حيث ستتم دراسة ألفاظ الشاعر وعباراته وتراكيبه وأساليبه، وصوره وتشبيهاته، وبناء القصيدة من حيث المقدمة والخاتمة، وتوظيف المحسنات البديعية ومدى اعتماد الشاعر عليها في إبراز أفكاره ومعانيه، وبخاصة إذا ما علمنا أن شعراء المديح النبوي قد أكثروا من توظيفا في قصائدهم، وسيتم التمثيل على هذه السمات جميعها من شعر ابن حجر الدال عليها.

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام أن الدراسة قد اعتمدت على نسخة ديوان ابن حجر العسقلاني بتصحيح وتعليق الدكتور السيد أبو الفضل الصادرة في مكة المكرمة بتاريخ 1962 م، لاختيار النماذج الشعرية الدالة على موضوعات الدراسة.

التمهيد:

نشأة ابن حجر ومكانته العلمية.

أجمعت المصادر التي تناولت ابن حجر العسقلاني على نسبه، فهو: « شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد الكناني العسقلاني ثم المصري ثم الشافعي »[1]. الذي ولد في مصر سنة (773 هـ) وتوفي سنة (852 هـ)[2] بسبب مرض ألم به، حيث ترك موته أثرا كبيرا في أهل عصره، لما كان يتمتع به من مكانة علمية بارزة ومؤثرة، وبخاصة علوم القرآن الكريم والعلوم الحديث النبوي الشريف، حتى إن السلطان الملك الظاهر قد حضر الصلاة عليه، إلى جانب الخليفة المستكفي وكثير من علماء عصره الذين انتابهم الحزن والأسى لفقده.[3]

(1) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي: ابن ثغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، (ت 874ه)، تحقيق محمد محمد أنيس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984 ج 1، ص 17. وانظر: نظم العقيان في أعيان الأعيان، السيوطي، الإمام الحافظ جمال الدين، (ت 911 ه)، حرره فيليب حتي، المطبعة العلمية، بيروت، 1980، ج 1 ص 45.

(2) رفع الأصر عن قضاة مصر: ابن حجر العسقلاني، (ت 852 ه)، تحقيق حامد عبدالحميد، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1957، القسم الأول، ص 7.

(3) المنهل الصافي، ج 2، ص 22، وانظر: ابن حجر العسقلاني ودراسة مصنفاته ومهجه وموارده في كتاب الإصابة، شاكر محمود عبدالمنعم، بغداد، 1976، ص 193.

ومما يبدو أن ابن حجر كان من أهم علماء عصره لدرجة أن المصادر أيضا لم تختلف في وصفه بأنه كان عالما متقنا لعلومه وحافظا المشرق والمغرب[1]، كما أنها أشادت بتفوقه وإبداعه في علوم الحديث النبوي الشريف حتى تقدم في جميع فنونه[2]، فلقب لذلك بأمير المؤمنين في الحديث، حيث انتهت إليه رئاسته في هذا العلم الذي انصرف إليه مدة عشرة أعوام.[3]

ولعل نبوغ ابن حجر في علوم الحديث عائد إلى كثرة اهتمامه وعنايته بهذا العلم وتتلمذه على أجل علماء عصره، أمثال شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني، والحافظين ابن الملقن والعراقي، والشيخ تقي الدين محمد بن محمد الدجوي وغيرهم.[4]

ولمَّا كان ابن حجر حافظا لكتاب الله عز وجل ملما بعلومه، إلى جانب إلمامه بعلوم الحديث النبوي الشريف فقد لقب أيضا بشيخ الإسلام[5]، ولشدة حرصه على التفقه بهذه العلوم تنقل بين مصر والحجاز والشام واليمن، مما أتاح له هذا التنقل فرص اللقاء بمجموعة خيرة من العلماء في تلك البلدان.[6]

وإضافة إلى مكانته العلمية وانشغاله بعلوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فإنه كان على صلة بالأدب والشعر منه على وجه الخصوص، حيث تشير بعض المصادر إلى أن أول اشتغاله كان: « بالأدب والتاريخ وقال الشعر الحسن وأجاد به ».[7] كما عرف عنه أن كان يروي الشعر وأيام من تقدمه وعاصره، فضلا عن تمتعه بجانب وفير من فصاحة اللسان وبلاغته.[8]

(1) ذيل تذكرة الحفاظ: الحافظ أبو الحسن الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 5، ص 380. وانظر: إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر العسقلاني، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، 1998، ج 1، ص 7. وانظر: نظم العقيان في أعيان الأعيان، ج 1، ص 45.

(2) المنهل الصافي: ج 2، ص 23. وانظر: شعر المديح عند ابن حجر العسقلاني: ماهر المبيضين، حوليات آداب عين شمس، جامعة عين شمس، مجلد 33، 2005، ص 104 _ 105.

(3) إنباء الغمر وأبناء العمر: ج 1، ص 19. وانظر: ابن حجر العسقلاني مؤرخا: محمد كمال الدين، ط 1، عالم الكتب، بيروت، 1987، ص 27 _ 33.

(4) إنباء الغمر وأبناء العمر: ج 1، ص 19، وانظر: المهل الصافي: ج 2، ص 18.

(5) ابن حجر العسقلاني شيخ الإسلام: كامل محمد محمد، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ص 31.

(6) ابن حجر العسقلاني ودراسة مصنفاته: ج 1، ص 117. وانظر: ابن حجر العسقلاني مؤرخا، ص 34.

(7) المرجع السابق: ص 33.

(8) المنهل الصافي: ج 2، ص 23.

ولسعة اطلاع ابن حجر وتنوع علومه ومعارفه ورحلاته العلمية تنوعت مصادره وتنوعت فيها موضوعاتها، فقد ترك وراءه وفرة من المؤلفات نذكر منها: شرح صحيح البخاري، لسان الميزان، رفع الإصر، تخريج أحاديث الرافعي، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، وله ديوان شعر مطبوع.[1]

شعريته وديوانه:

إلى جانب اهتمام ابن حجر العسقلاني بعلوم القرآن الكريم وعلوم الحديث فإنه كان مهتما بفن الشعر،حيث أشارت بعض الدراسات التي تناولت ابن حجر إلى أنه قد نظم الشعر أثناء رحلته إلى حلب سنة (836 هـ)[2]، وهي الفترة التي تزامنت مع فترة انشغاله واهتمامه بعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف أيضا، ولعل تنوع موضوعات شعره وإظهار مقدرته الشعرية فيها جعلت العلامة السيوطي يعده: « أحد سبعة الشهب من الشعراء وهم سبعة من الشعراء اشتهروا في القاهرة في وقت واحد، كل واحد منهم كان لقبه شهاب الدين وهم: ابن حجر، وابن شهاب النائب، وابن أبي السعود، وابن أبي مبارك شاه، وابن صالح، والحجازي، والمنصوري ».[3]

لقد جعل ابن حجر العسقلاني أشعاره في سبعة أقسام هي نفسها الأغراض الشعرية التي نظم بها شعراء عصره، وقد كشف عنها في مقدمة ديوانه حينما قال: « فكتبت في هذه الأوراق سبعة أنواع من كل نوع سبعة أشياء إلا الأخير منه، فافتتحت بالنبويات ثم الملوكيات ثم الإخوانيات ثم القريبات ثم الغزليات، ثم الأغراض المختلفة، ثم الموشحات ثم المقاطيع، وقلت مخاطبا من نظره ومضمنا:

يَـا سيِّدا طَـالِـعُـهْ إِنْ راقَ مَعناه فعدْ

وافتحْ له بابَ الرِّضا وإِن تَجدْ عَيْبا فَسَدْ »[4]

ويبدو أن أهم هذه الأقسام الشعرية التي صرح بها ابن حجر هو المديح النبوي -

(1) المصدر السابق: ج 2، ص 23. وانظر: شعر المديح عند ابن حجر العسقلاني، ص 105

(2) ابن حجر العسقلاني شيخ الإسلام، ص 138..

(3) المرجع السابق: ص 139.

(4) ديوان ابن حجر العسقلاني: جمعه وصححه السيد أبو الفضل، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، 1962، ص 1. وانظر عن هذه الأقسام: ابن حجر العسقلاني ودراسة مصنفاته، ج 1، ص 640.

موضوع الدراسة - مما جعل له مكانة عند معاصريه ؛ ولهذا كان لشعره حضور في المحافل والخطب: « حتى امتدحه فحول الشعراء وقال ابن العماد: أولع بالنظم وقال الشعر الكثير المليح، إلى النهاية، وقال السخاوي: وأُنشد من نظمه في المحافل وخُطب من ديوانه على المنابر لبليغ نظمه ونثره حتى امتدحه الكبار، وتبجح فحول الشعراء بمطارحته، فذكر محاسن شعره وجودة نظمه كثير من معاصريه، مثل البدر البشتكي في طبقات الشعراء، والمقريزي في العقود الفريدة وغير هؤلاء الأصحاب ».[1]

يبدو من النص السابق وشهادة هؤلاء العلماء أن ابن حجر كان له حضور مبرز في باب الشعر، ولعل مديحه النبوي على وجه الخصوص هو الذي هيأ وحقق له هذه المكانة المرموقة، فضلا عن شعريته وإبداعه وإجادته وبلاغته التي بدت ماثلة في قصائده.

ومهما يكن من أمر فإن لابن حجر ديوان شعر مطبوعاً اعتنى بجمعه وتصحيحه الدكتور السيد أبو الفضل، وقد أصدرته مكتبة النهضة في مكة المكرمة في المملكة العربية السعودية، إلا أن هذه النسخة بحاجة إلى مزيد من الاهتمام لتغدو أكثر وضوحا وسهولة للقارئ.

الفصل الأول:

الدراسة الموضوعية

نظم ابن حجر العسقلاني في أغراض شعرية متنوعة إلا أن المديح كان أهمها جودة وكَمًّا، وقد جعل مديحه في ثلاثة أقسام: الأول منها المديح النبوي أو النبويات كما يسميها هو، والقسم الثاني سماه الملوكيات، وجاء القسم الثالث تحت مسمى الأميريات والصاحبيات،ويلحظ الدارس في هذه الأقسام كلها ما تمثل فيها من مظاهر التقليد والتجديد موضوعيا وفنيا، ولأهمية النبويات في مديح ابن حجر فقد خصت الدراسة هذا القسم دون غيره لتتبع مظاهر التقليد والتجديد فيها.

لا تخلو دواوين شعراء القرن السابع الهجري وعلى رأسهم البوصيري من شعر المديح النبوي الذي كان غرضا رئيسا من أغراض الشعر العربي في العصر المملوكي، وقد نهض هؤلاء الشعراء بالمدحة النبوية وجعلوا لها أصولا ثابتة ذات مضامين متشابهة

(1) ديوان ابن حجر: ص، ز

إلى حد كبير، حتى غدا مظهر التقليد فيها يشكل ظاهرة أدبية لافتة عند معظم الشعراء الذين تصدوا لمدح النبي الكريم عليه السلام في ذلك العصر وابن حجر أحد أبرز هؤلاء الشعراء، ولعل تبرير هذه الظاهرة يعود إلى أن الممدوح شخص واحد أخلاقه وأوصافه ومعجزاته وغزواته ورسالته موضوعات مشتركة عند جميع الشعراء.

ووفقا لما سلف ذكره فإن المعاني الشعرية عند جميع الشعراء مكرورة مع وجود بعض الاختلاف الذي يمكن أن يعد من باب التجديد الذي لا يقارن بمظاهر التقليد وهو الأمر الذي سنلاحظه عند ابن حجر العسقلاني الذي بسط القول في سيرة النبي الكريم عليه السلام في نبوياته، مقلدا ومكررا لكثير من المضامين والمعاني، فتحدث عن مولده وبعثته ومعجزاته وصفاته وأخلاقه وغزواته ومكانته عند الله عز وجل وأفضليته على باقي الرسل، كما أنه قد خص صحابته والتابعين وأصحاب كتب الحديث بمديحه.

ويمكن من خلال قراءة متعمقة لنبويات ابن حجر أن نلحظ ثمة باعثين حفَّزا ابن حجر على الإسهاب في مدح النبي عليه السلام، أهمها طلبه للشفاعة من الرسول الكريم عليه السلام والتوسل به إلى الله عز وجل طلبا للمغفرة من الذنوب والتكفير عن سيئاته، وقد صرح بذلك في غير موضع من نبوياته، ومن ذلك قوله: (1)

وخُصِصتَ فَضلا بالشَّفاعةِ في غَدٍ ... ومَقامِك المَحمودِ والمَحبوبِ
والأَنبياءُ وقد رُفِعتْ جَلالةً ... في الحَشرِ تحت لوائِك المنْصُوبِ
فَاشفعْ لِمادِحِكَ الذي بِك يتَّقِي ... أَهوالَ يوم الدينِ والتَّعذيبِ
قد صَحَّ أن ضنَاه زادَ وذنبَه ... أَصلُ السَّقامِ وأنت خيرُ طبيبِ

ونراه يعترف بصراحة بكثرة ذنوبه فيتوسل بالنبي الكريم عليه السلام ليشفع له عند الله عز وجل فيقول:(2)

بِبابِ جُودِك عبدٌ مذنِبٌ كَلِفٌ ... يا أحسنَ الناسِ وجهاً مُشرقاً وقَفا
بِكُم توسلَ يرجُو العفوَ عن زَلَلٍ ... من خَوفه جفْنهُ الهَامِي لقد ذَرفَا

(1) ديوان ابن حجر: ص 10.

(2) ديوان ابن حجر: ص 16.

وإن يَكُـن نِسْبَةً يُعزى إلــى حَجرٍ فَطالما فـاضَ عــذْباً طيباً وصَـفَا
والمدحُ فيك قصورٌ عَنكُمُ وعَسى فــي الخُلدِ يُبدلُ مــن أبياتِه غُـرفَا

وثمـة باعـث آخـر دفـع ابـن حجـر إلـى المديـح النبـوي يتمثـل فـي تفقـه فـي علـوم القـرآن الكريـم وعلـوم الحديـث النبـوي الشـريف، وهـذا الأمـر زاده قربـا مـن شـخص النبـي الكريـم عليـه السـلام، فعـرف قـدره ومنزلتـه، ودوره فـي نشـر دعوتـه ورسـالته ؛ ولهـذا أراد أن يخصـه بمديـح يجسـد مـن خلالـه حبـه لـه مبينـا منزلتـه وأخلاقـه وصفاتـه فـي قصائـد شـعرية يقرأهـا النـاس.

ومما اشـتملت عليـه نبويـات ابـن حجـر والتـي بـدا فيهـا مقلـدا لشـعراء عصـره ومكـررا لبعـض الموضوعـات فـي غيـر موضـع منهـا، حديثـه عـن الآثـار والعلامـات الكونية التـي رافقت مولـد النبـي عليـه السـلام، وهـي معـان طرحهـا معظـم شـعراء المديـح النبـوي فـي عصـره، إلا أن ابـن حجـر هنـا قـد أكثـر منهـا فـي مواضـع متعـددة مـن ديوانـه فـي قسـم النبويـات، ومـن ذلـك حديثـه عـن تصـدع إيـوان كسـرى ونضـوب مـاء بحيـرة سـارة، وخمـود نـار فـارس، يقـول:[1]

إِيوانُ كِسرى انشقَّ ثـم تَساقطتْ شُرفاتُهُ بــل كــادَ رُعباً يُهدَمُ
والماءُ غاضَ ونارُ فَارسَ أُخمِدتْ مِن بعد ما كانت تُشبُّ وتُضـرَمُ
هــذا وآمنةٌ رأتْ نــاراً لــهَــا بُصرى أضاءتْ والدَّياجي تُظلِمُ

وقوله أيضاً في المعنى نفسه:[2]

كَم بينَ إيوانِ كِسرى من مُناسَبةٍ وبينَ بدرِ السّما والكُفرِ قد خُسِفا
هُما انشقاقــانِ هـذا يومَ مـولدِه وذا بمبعثِه الزَّاكــي هُـدىً سَلفا

ومما أطنـب ابـن حجـر فـي ذكـره وجـاء فيـه مكـررا ومقلـدا أيضـا لشـعراء المديـح النبـوي فـي عصـره، مـا يرتبـط بحادثـة الإسـراء والمعـراج، حيـث نـراه يكـرر معانـي الإعجـاز فـي هـذه الحادثـة ومـا رافقهـا مـن أحـداث، ومـا خُـصّ بـه النبـي عليـه السـلام عـن باقـي الأنبيـاء والرسـل، وبخاصـة فـي الأماكـن التـي رُقـي إليهـا فـي معراجـه والتـي لـم يصلهـا أحـد غيـره، يبـدو هـذا

(1) المصدر نفسه: ص 4
(2) ديوان ابن حجر: ص 24.

المعنى في قوله قوله:[1]

أَسرى بِجسمك للسماءِ فَبُشِّرتْ أملاكُها وحَبتك بالتَّرحِيبِ
فعلوت ثم دنوت ثم بلغت ما لا يَنبغِي لِسوَاكَ من تَقريبِ
وخُصِصْتَ فَضلا بالشَّفاعةِ في غَدٍ ومَقامِك المحمودِ والمَحبوبِ

وفي موضع آخر يحدد ابن حجر أماكن الإسراء والمعراج لما لهذا التحديد من دلالة على قداسة هذه الأماكن:[2]

سَرى إلى المسجدِ الأقصى من الحرمِ المَكيِّ والطَّرْفُ للإسراعِ ما طُرِفَا
ثم ارْتقَى الأُفقَ بالجِسم الكريمِ عُلاً والرُّوحُ خَادِمهُ والقلبُ ما ضَعفَا
لَقابَ قوسينِ أو أَدنى عَلا ودَنا وقلبُ حاسِدهِ المُضْنَى غَدا هَدفا

ويستغل ابن حجر كلامه عن حادثة الإسراء والمعراج لينفذ من خلالها إلى الحديث عن مكانة النبي عليه السلام عند الله عز وجل والمنزلة الراقية التي وصل إليها إجلالا لقدره، فهو مقبول الشفاعة للعصاة يوم القيامة، وهو أيضا سيد الرسل والأنبياء وخاتمهم وأحبهم إلى الله عز وجل، وهذه المكانة يقر بها الأنبياء أنفسهم الذين نطقوا بحمده ومقامه، يقول:[3]

وهُو المشفَّعُ في العُصاةِ إذا طَمى عَرقٌ وأَلجمَ في الوُرودِ وَرِيدا
يَأتي لِساقِ العرشِ يَسجد سَائلا للهِ فِينا حَبَذاك سُجودا
وعليهِ يَفتحُ ربُّه بِمحامدٍ لم يُعطِ خلقا ذلك التَّحمِيدا
ويقولُ قلْ تُسمعْ وسَلْ تُعطَ المُنى واشفعْ تُشَفَّعَ وأَنجزَ المَوعُودا
فَهناك يَشفعُ في الوَرى من مَوقفٍ لا تَرتجِي العَينانِ فيهِ هُجُودا
ذَاك المقامُ بهِ يُخصُّ محمدٌ والرُّسلُ فيه يَحضرُون شُهودا

(1) المصدر نفسه: ص 20.
(2) ديوان ابن حجر: ص 19.
(3) المصدر نفسه: 13.

ثُمَّ الشَّفاعةُ فـــي العُصَاة فـــإنَّـــهُ فيـــهِ المُقـدَّمُ لا يَخـــافُ ردُودا
والأَنبياءُ نَطقُـــوا بِحمدِ مَقـامـــهِ ومَقامُ أحمدَ لـــم يـزلْ مَحمودا
يا سيِّدَ الرُّسلِ الذي فـــاقَ الوَرى بَأساً سَما كُـــلَّ الوُجودِ وجُودا

ويبسط ابـن حجـر القـول بوصـف النبـي عليـه السـلام مقلـدا ومكـررا فـي معانيـه، فيتغنـى بشـجاعته فـي غزواتـه ضـد الشـرك والمشـركين، كمـا يتحـدث عـن فتـح مكـة وعـن غـزوات بـدر وخيبـر وحنيـن وغيرهـا مـن الغـزوات التـي ارتفعـت فيهـا رايـة الإسـلام وانحطـت رايـة الكفـر، ومثـال ذلـك قولـه فـي فتـح مكـة:[1]

وبِفتحِ مكةَ قـد عفَا عَمَّن هفَا فَأتوْهُ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ
وأَزالَ بالتَّوحيدِ ما عَبدوه مِن صَنمٍ برأيٍ ثَـابتٍ وصَليبِ

وقوله يصور ذل الشرك والمشركين:[2]

رُدَّت أَعَادِيه فـــي بدرٍ مُنكَّســـةً بِخَجلةٍ أورثَتْها النَّقصَ والكَلَفا
ويـــــومَ خيبَـرَ آيـــاتٌ مُبيِّنـــةٌ بالبابِ منهُ عليٌّ قد عَلا شَرفا
وفي حُنينٍ قميصُ الشِّركِ ليسَ له لمَّا تمزَّقَ رأفٍ من عِداه رَقَا

ومما يعـد مـن بـاب التجديـد فـي موضـوع النبويـات عنـد ابـن حجـر ولـم يكـن مطروقـا عنـد غيـره ممـن نظمـوا فـي المديـح النبـوي مـا خـص بـه أصحـاب النبـي الكريـم مـن وصـف ومـدح بلـغ فيـه حـد الإطنـاب، حيـث فصـل الحديـث عـن صفاتهـم وفضلهـم فـي نصـرة الدعـوة الإسـلامية، مصرحـا بأسـمائهم فـي أحيـان كثيـرة، يقـول واصفـا شـجاعتهم وسـموهم: (2) [3]

وعلى صَحابتِك الذيـن سَموا عـلا وهُدىً وآباءً رقُوا وجُدودا
مـــن معشرٍ كَانـــوا الأئمةَ للـوَرى فاقُوا البريَّةَ سِيدا ومَسُودا
فإذا سَخُوا كانوا البِحارَ وإن سَطُوا الأُسـودَ أو السُّراةَ الصِّيـدا

(1) المصدر نفسه: ص9.
(2) ديوان ابن حجر: ص 13 - 14.
(3) المصدر نفسه: ص 20 - 21.

وقوله يصرح بأسماء بعضهم بعد أن أتى على ذكر فضائلهم:[1]

وبالرِّضى خُصّ منهم عَشرةٌ زُهرٌ ... يـا ويْحَ مَـن فِـي مُوالاةٍ لَهم وقَفا

سَعـدٌ سعيدٌ زبيرٌ طلحـةٌ وأبُـو ... عبيدةَ وابـنُ عـوفٍ قَبلَـه الخُلَفا

والسَّابقون الأُلى قَد هَاجرُوا معـه ... ومـا بِفضلٍ لأَنصـارِ النَّبي خَـفَـا

تَبوّوا الـدَّارَ والإيمانَ قَبلُ وقَـد ... آوَوْا وَفَوْا نَصرُوا فازُوا رقُوا شَرفا

ومما يمكن عده من باب التجديد أيضا في نبويات ابن حجر الحنين إلى الديار الحجازية، فقد كان يتشوق إلى زيارة مكة المكرمة والطواف في البيت العتيق، والسعي بين الصفا والمروة، ومما جاء في هذا المعنى قوله:[2]

ألا ليتَ شِعري هل أَبيتنَّ ليلةً ... أُشفِـــي ذَا الفُـؤاد الـمُـفنَّـدا

وهل أَرِدْنَ ماءَ النَّعيمِ بِزمزمٍ ... وَهل لي أن أَروى وأَسعى وأُسعَدا

ولهذا الشوق والعشق الدائمين إلى الديار الحجازية وزيارة قبر النبي عليه السلام مكانة كبيرة بلغت في نفس ابن حجر ؛ ولهذا كان يتابع مسير الحجيج إلى مكة متوسلا إليهم أن يصحبوه معهم، كما يبدو هذا المعنى في قوله:[3]

ولا أَنسَى غداةَ البينِ لـمَّـا ... رَآني اليأْسُ مُنقَطِعَ الرَّجاءِ

وقَـد زَفَّـت لهم نُخبٌ تَهادى ... كـأَمثالِ العَرائِسِ للـجَـلاءِ

وخَطَّت منَّا مَنَاسِمُها سُطورا ... وسَاروا فَهِيَ خطُّ الاستِواءِ

فقلتُ لها خُذِي جِسمي ورُوحِي ... لِطيبةَ حيثُ مُجتمعُ الهَناءِ

ومن جوانب التجديد في نبويات ابن حجر أيضا ولم تكن عند غيره من الشعراء ما تتضمنه خاتمة القصيدة المدحية من حديث عن كتاب من كتب الحديث أو الفقه التي انتهى

(1) المصدر نفسه: ص 25.

(2) المصدر نفسه: ص 29.

(3) ديوان ابن حجر: ص 25.

من قراءته، فبعد أن يفرغ من ذكر موضوعات المديح النبوي يأتي بحديث يخص به أحد هذه الكتب التي فرغ من قراءته، ومن ذلك قوله في الصحيحين البخاري ومسلم وسنن أبي داوود خاتما به إحدى مدحياته:[1]

مِثْلُ البُخارِي ثُــمَّ مُسلمٍ الــذي ... يَتلُوه فـي العُليا أَبــو دَاؤُدا

فَــاق التَّصانيفَ الكِبارَ بجمعِهِ ... الأحكامَ فيها يَبذُلُ المَجهُودا

قَد كانَ أَقوى ما رأى فـي بَابهِ ... يَأتِــي بــهِ ويُحـرّر التَّجوِيدا

ومما يضاف إلى ما سلف في محور التجديد أن ابن حجر كان يخص التابعين وأصحاب كتب الحديث على وجه الخصوص بمديحه ، فيشيد بعلومهم وفضلهم وأهمية كتبهم، وقد كرر ابن حجر هذا الأمر في غير قصيدة من نبوياته ؛ ويمكن تبرير ذلك بشغف ابن حجر بقراءة كتب الحديث وعلومه، ومدى إعجابه بأصحابها ، ومما جاء في هذا المعنى قوله:[2]

والتَّابِعين لهم بإِحسانٍ فَــهــم ... نَقلوا لِما حَفِظُــوهُ مِنهم عَنهـمُ

وأَتــى علــى آثارِهم أَتباعُهم ... فَتفقَّهــوا فِيما رَوُوا وتعلَّمــوا

وأَصحُّ كتبِهم على المَشْهورِ ما ... جَمع البُخارِي قَــال ذَاك المُعظَمُ

وتَلاهُ مسلمٌ الــذي خَضَعت لــه ... في الحِفظِ أعناقُ الرِّجالِ وسَلَّموا

قُــلْ للمخالِــفِ لا تُعاندْ إنَّــهُ ... ما شكَّ في فَضلِ البِخَاري مسلمُ

وغالبا ما كان يأتي ذكر أصحاب كتب الحديث وعلومه بعد تفصيل ابن حجر في ذكر معجزات النبي عليه السلام وأخلاقه وبيان مكانته، فيأتي ليخص هؤلاء بمديحه مصرحا بذكر أسمائهم ومشيدا بدورهم في جمع الحديث والاهتمام بعلومه، يقول:[3]

ولا مِـثْـلَ جَمعِ البَيهقيِّ فَـحسنهُ ... تَقومُ لـه يَــومَ الفَخَارِ دَلائـلُ

فيا رب بالإحسان في الخلد جــازه ... فإنــك بالإحسان كاف وكافـل

(1) المصدر نفسه: ص 20.

(2) المصدر نفسه: ص 6.

(3) ديوان ابن حجر: ص 29.

وعَمِّرْ سِراجَ الدينِ بالنُّورِ والهُدى يُحاولُ إِطفاءَ الرَّدى ويُصَاوِلُ

ولا زالَ شيخُ المِسلمين مُسلَّـمـاً يُجدِّلُ أعـداءً لهُمْ ويُجـادِلُ

إِمامٌ له فـي طَالِبِي العلمِ راحـةٌ على أَنَّها ما أَتْعبتْهَا الفَواصِـلُ

ومما ينبغي ذكره أن ابن حجر العسقلاني عند حديثه عن شخصية النبي الكريم عليه السلام قد وصفه بأوصاف تتفق وتصور أهل السنة، فهو قد اعتمد كثيرا على ما جاء به القرآن الكريم وما ورد في كتب الحديث والروايات والأخبار ؛ لذلك لم يتغول في الوصف غلو بعض المتصوفة الذين غالوا في الحديث عن الذات المحمدية، أو ما يعرف بالحقيقة المحمدية.

ومهما يكن من أمر فإن ما سلف ذكره في الدراسة الموضوعية يكشف بوضوح المعاني والمضامين التي اشتملت عليها نبويات ابن حجر، وقد غلب عليه جانب التقليد في كثير من هذه المضامين الشعرية، لكن المتلقي لا يعدم وجود بعض مظاهر التجديد التي يمكن اعتبارها خصوصية من خصوصيات ابن حجر في نبوياته.

الفصل الثاني

الدراسة الفنية

يلحظ الدارس لنبويات ابن حجر العسقلاني أنها جاءت في مضامينها وشكلها الفني متشابهة إلى حد كبير لشعر المديح النبوي في عصره، حيث كانت القصيدة المدحية تسلك مسلكا واحدا من حيث المقدمة أو الاستهلال، وحسن التخلص، ثم عرض الموضوع، وصولا إلى خاتمة القصيدة، إلا أن ابن حجر اختلف عن شعراء عصره في موضوع المديح النبوي نوعا ما من الناحية الفنية في بعض الجوانب التي يمكن أن تعد من باب التجديد.

لقد استهل ابن حجر مدائحه النبوية بمقدمة غزلية يبدو فيها جانب التقليد في إطارها الخارجي، بينما يبدو الاختلاف فيها عن غيره من الشعراء الإطالة و الإطناب في هذه المقدمة، فتحدث فيها عن المحبوبة ذاكرا أثر حبها في نفسه وحبه لها وتعلقه بها إلى حد الهيام، ثم يسهب في وصف حاله بعد فراقه وما أصابه من نحول في الجسم وبكاء لا ينقطع، ويرى الدارس هنا أن بعض المقدمات الغزلية عند ابن حجر قد تجاوزت أربعة

وعشرين بيتا، وعلى الرغم من ذلك فإن الغزل في شعر المديح النبوي بشكل عام ومديح ابن حجر على وجه الخصوص لم يكن مقصودا لذاته، والأرجح فيه: « أن الغزل في مقدمة المدحة النبوية لم يكن مقصودا لذاته، ولا يعبر عن مشاعر محرمة عند المادح، ولا يقصد به إثارة غرائز السامعين، وهو لا يعدو مقدمة فنية لإثبات المقدرة الشعرية، وجريا على عادة متأصلة في نفوس الشعراء، وإنما يكون الغزل المحتشم أكثر ملاءمة للموضوع وجو القصيدة، وجلالة الممدوح، ويبدو أن مقدرة الشاعر الفنية وتأصل الاتجاه الشعري عنده هو الذي يفرض عليه الغزل الذي يقدم به للمدحة النبوية، لا يعقل أن يورد شاعر يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام في قصيدته ما يسيء إليها عامدا متعمدا ».[1]

ودعما للقول السابق يُلحظ على نسيب ابن حجر أنه ابتعد فيه عن الغزل الحسي للمحبوبة، كما أنه لم يصرح بذكر اسم محبوبة بعينها، إنما جاء نسيبه حافلا بذكر مشاعره وأحاسيسه وحنينه وشوقه، ووجع الفراق وألمه، ومن ذلك قوله:[2]

فَارفِقْ بِمشتَاقٍ بحبِّكَ مُفرَدٍ ... يا صَاحبَ الحُسنِ الغريبِ غَريبِ

لولاكَ ما قلتُ اسْكُبِي يا مُقلتي ... غَيثاً ويا كَبِدي بِنَارِك ذُوبي

وَسقامُ جِسمي بالبكاءِ لقد نَما ... مِن جَريِ نَهرِ مَدامعٍ وصَبيبِ

وهو في هذا يشارك شعراء عصره ويكرر معانيهم في معظم مدائحه، كما أنه قلدهم أيضا في وصفه للمحبوبة التي خلع عليها صفات الحسن والجمال معتمدا على الصور والتشبيهات التي تظهر جمالها، وهو في وصفه لها لا يخرج على الأعراف والأخلاق، يقول:[3]

وأَهيفٍ خَطرَتْ كالغُصنِ قَامتُهُ ... فَكلُّ قَلبٍ إليها مِن هَواهُ هفَا

كالسَّهمِ مُقلتهُ والقَوسُ حَاجِبُهُ ... ومُهجَتِي لها قد أصبَحتْ هَدَفا

ذُو وَجْنةٍ كالشَّقيقِ الغَضِّ في تَرفٍ ... يَظلُّ مِنها جَبينُ الشَّمسِ مُنكَسِفَا

(1) المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي: محمود سالم محمد، ط 1، دار الفكر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1996، ص 320.

(2) ديوان ابن حجر: ص 8.

(3) المصدر نفسه: ص 19.

يـــا أيُّها البَدرُ إنـــي بَعد بُعْدِكَ لا أَنفكُّ فـي جَامعِ الأَحزانِ مُعتَكِفا

ومن الظواهر اللافتة في نسيب ابن حجر هنا والذي يمكن عده من باب التجديد وفقا لإسهابه في الحديث عنه، ذكره للعواذل الذين يكثرون من لومه على فرط حبه وبكائه ونحول جسمه، فقد وجد الباحث أن معظم مقدمات ابن حجر الغزلية في باب المديح النبوي قد صدرها بالحديث عن العواذل، وعلى الرغم من وجود هذا المعنى عند كثير من شعراء عصره ومن سبقهم على مر العصور الأدبية، إلا أن ابن حجر تفرد عنهم في بعض الخصوصيات، كأن يبدأ مدحته بذكر العواذل والإطناب في ذكرهم ووصفهم والرد عليهم على سبيل المثال، حتى بدا ذلك مظهراً تميز به الشكل الفني للمقدمة الغزلية و من ذلك قوله في إحدى مدحياته:[1]

لـــو أنَّ عُذَّالِي لِوجْهِك أَسلمُوا لرَجوتُ أنِّـــي في المَحبةِ أَسلَمُ

كيفَ السَّبيلُ لِكتمِ أسرارِ الهَوى ولِسانُ دَمعِي بـــالغَرامِ يُتَرجَمُ

لام العَواذلُ كُـــــلَّ صَادِ للِّقا ومَلامُهُمْ عَينُ الخَطا إنْ يَعلَمُوا

لـــم يَعلموا بِمَن الهَوى لكنَّهمْ لامُوا لِعلمِهمُ بأنِّـــــي مُغرمُ

تَباً لهم لـــــم يَأتِهمْ تَأويلُ ما لامُوا عَليهِ لأنَّهم لـــم يَفهمُوا

يتبين كيف أن ابن حجر قد أطنب في خطاب هؤلاء والرد عليهم مبررا ما هو عليه من حب وهوى وبكاء، ليعود إليهم مرة أخرى في ثنايا مقدمته الغزلية فيقول: (2)[2]

يا عَاذِلِي إني جُنِنتُ بِحبهمْ وإلى سِوى أَوطانِهم لا أَغرَمُ

ومما يمكن عده أيضا من باب التجديد فنيا في مقدمته الغزلية ما يرتبط بمسألة حسن التخلص من النسيب إلى الموضوع الرئيس وهو مدح النبي عليه السلام، ولعل الجديد هنا يتمثل في أن ابن حجر بعد أن يفرغ من مناجاة المحبوبة وبث مشاعره وأحاسيسه وآهاته وبكائه، فإنه يوجه كلامه مباشرة إلى المحبوبة معلنا لها إن خلاصه من الهوى سبيله الانتقال إلى مدح النبي الكريم عليه السلام، بمعنى أنه كان يصرح بشكل مباشر أنه

(1) ديوان ابن حجر: ص 2.

(2) المصدر نفسه: ص 36.

سيتخلص إلى موضوع المديح، ومثال ذلك قوله:[1]

واللهِ مَالِي مِن هَواكَ تَخلصٌ إلاّ بِمدحِ المُصطَفى المَحبوبِ

وقوله في موضع آخر بعد أن فرغ من وصف حاله وما أصابها بعد فراق المحبوبة:[2]

هَيهات صُمتُ عن الغَرامِ فلم أُعِدْ قَلبي السَّقيمَ من الغَوايةِ عِيدا

وذَممتُ مَـــن يَهوى جَفاءَ مُحبِّهِ وسَلكتُ مَدحاً في النَّبِي حَمِيدا

ولمَّا كان الحديث هنا عن بناء القصيدة فينبغي الإشارة إلى خاتمة المدحة النبوية عند الشاعر، والتي يبدو فيها مقلدا لشعراء عصره إلى حد كبير، فهو كثير ما يختمها بالدعاء المباشر للنبي عليه السلام، والدعوة إلى الصلاة والسلام عليه لنيل شفاعته، ومن ذلك قوله خاتما إحدى قصائده:[3]

ثُم الصلاةُ والسلامُ على النَّبِي يُبدأُ بـهِ الذكرُ الجَميلُ ويُختَمُ

يَـا أيُّها الزَّاجُونَ خَيرَ شَفاعَةٍ مِن أحمَدٍ صَلُّوا عَليهِ وسلِّمُوا

وفي موضع آخر يختم قصيدته بالدعاء إلى الله عز وجل راجيا لطفه متوسلا إليه بالصلاة والسلام على النبي الكريم، يقول:[4]

فَـيَـا ربِّ عَـــامِلنا بِلُطفِكَ إنَّنا نَرى بِجميلِ الظنِّ ما أنتَ فَاعلُ

أَعِذنا مِن الأَهْوالِ والفِتنِ التي أَواخرها تُوهِي القُوى والأَوائلُ

وصلِّ علـــى خيرِ الأنامِ وآلِهِ وسلّمْ وبَـــارِكْ كُلَّما آبَ آفِـــلُ

ويلتقي ابن حجر في نبوياته مع كثير من شعراء عصره الذين تناولوا شخص النبي عليه السلام في بساطة الألفاظ وسهولتها ووضوحها وبعدها عن الغريب، فالمعاني واحدة والممدوح واحد ؛ ولهذا يطغى هنا جانب التقليد حيث: « إن موضوع المديح من المواضيع

(1) المصدر نفسه: ص 9.

(2) ديوان ابن حجر: ص 18.

(3) المصدر نفسه: ص 7.

(4) المصدر نفسه: ص 22.

التـي تناولهـا الشـعراء، فاسـتنفد رصيـده مـن الطاقـات التـي يكتنزهـا ؛ ذلـك لأن شـعراء المديـح ضربـوا علـى قيثـارة واحـدة، فتكـررت المعانـي وتشـابهت الألفـاظ ».[1]

ويمكـن أن يضـاف إلـى مـا سـلف أن شـعراء المديـح النبـوي وابـن حجـر واحد منهم يسـتمدون كثيـرا مـن مضامينهـم وألفاظهـم مـن مصـدري التشـريع القـرآن الكريـم والحديث النبوي الشـريف، وكذلـك الأخبـار والروايـات والقصـص التـي تناولـت شـخصية النبـي عليـه السـلام ؛ ولهـذا فـإن أسـلوب الصياغـة عنـد ابـن حجـر فيـه مـن السلاسـة والوضـوح الشـيء الكثيـر، وقـد وصـف هـذا الأسـلوب بأنـه: « متوسـط الجـودة، رقيـق اللفظ، سـهل المؤونـة، ضعيـف الحمـل، لـم تثقلـه مصطلحـات علميـة ولـم تشـبه كلمـات فقهيـة كمـا شـابت شـعر غيـره مـن العلمـاء ».[2]

ويمكـن أن نسـجل لابـن حجـر هـذه الميـزة علـى أنهـا مـن بـاب التجديـد إذا مـا عـد مـن العلمـاء الشـعراء، فبهـذا الاختـلاف عـن غيـره نـراه مجـددا فـي هـذا الجانـب، ومـن النمـاذج الدالـة علـى الوضـوح والبسـاطة _ وهـي كثيـرة _ قولـه:[3]

أَبو القَاسمِ المُختارُ مِن نَسلِ هَاشمٍ وأَزكى الورَى نَفساً وأَصلاً ومُحْتَدا

نَبـــيٌّ بَـــــراه اللهُ أشرفَ خَلْقِهِ وأَسمَاهُ إذ سَمَّاهُ فِـــي الذِّكرِ أَحْمدا

فَـــأكرِمْ بِـــه عَبدا صَفِيا مُمَدَّحاً وأَنْعِمْ بـــهِ مَـــولىً وفيًّا مُحَمَّدا

ولمـا كان نهـج ابـن حجـر فـي أسـلوبه علـى هـذا النحـو، فإنـه قـد جنـح فيـه إلـى الاعتنـاء بالعبـارة ودقـة الصياغـة، ولكـي يحقـق ذلـك اعتمـد علـى بعـض الأسـاليب ليتأتـى لـه الإيقـاع الموسـيقي الـذي يتناغـم مـع الألفـاظ والـوزن الشـعري والقوافـي، ومـن هـذه الأسـاليب أسـلوب التكـرار الـذي أضفـى علـى مديحـه موسـيقى عذبـة انسـجمت وألفاظـه ومعانيـه التـي وظفهـا لإبـراز مكانـة النبـي عليـه السـلام، ومـن ذلـك قولـه:[4]

وعَينُ المَالِ جَـــادَ بِها سَخاءً فليسَ يَخافُ فَقرا مِـن عَطاءِ

(1) المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري: مخميرصالح، ط 1، دار مكتبة الهلال، بيروت، والدار القومية، عمان، 1986، ص 243.

(2) عصر سلاطين المماليك ونتاجه الأدبي: محمود رزق سليم، مكتبة الأدب، القاهرة، 1962، ص 320. وانظر: شعر المديح عند ابن حجر، ص 123.

(3) ديوان ابن حجر: ص 28.

(4) المصدر نفسه: ص 25.

وعَينُ الشَّمسِ رُدَّتْ بَعد حَجْبٍ لِـــذي الحَسَنَينِ مِنهُ بالدُّعـاءِ
وعَينُ قَتادةٍ سَالـــت فَـــرُدَّتْ ومُدَّتْ مِـــن يَديـــهِ بالضِّياءِ
وعَينُ القَلبِ ما لبِستْ هُـجُودَا فَما عنها لِشيءٍ مِـــن عَطاءِ
وعَينُ الفِكرِ مِـــنـــه أسَدُّ رأياً نَعمْ وأَشدُّ مَرأىً فِي المَرائِي

ومـن أبـرز السـمات الفنيـة التـي جـاء فيهـا ابـن حجـر مقلـدا لشـعراء عصـره فـي المديـح النبـوي التنـاص الدينـي، فهـو كثيـراً مـا كان يسـتمد أفكاره ومعانيـه مـن بعـض الآيـات القرآنيـة الكريمـة إمـا اقتباسـا مباشـرا للآيـة أو غيـر مباشـر عندمـا يوظـف المعنـى القرآنـي، ومـرد ذلـك عائـد إلـى ثقافـة ابـن حجـر الدينيـة الـذي كان حافظـا لكتـاب الله عـز وجـل ملمـا لكثيـر مـن العلـوم الدينيـة إيمانـا منـه بـأن القـرآن الكريـم: « يمثـل السـمة القـارة فـي الخطـاب الدينـي، وبالتالـي فـإن العـودة إليـه شـعريا تعنـي إعطـاء مصداقيـة متميـزة لمعانـي الخطـاب الشـعري، وذلـك انطلاقـا مـن مصداقيـة الخطـاب القرآنـي نفسـه ».[1]

ومما جاء في شعره من هذا التناص قوله في حادثة الإسراء والمعراج:[2]

سَرى إلى المسجدِ الأقصَى من الحرمِ المَكيِّ والطَرْفُ للإسراع مَا طَرَفا
ثم ارْتَقى الأفقَ بِالجسم الكريمِ عـــلا والروحُ خَادمُه والقَلبُ ما ضَعفا
لقَابَ قَوسينِ أو أَدنَى عَـــــلا ودنا وقَلبُ حَاسِده المُضْنَى غَدا هَدفا

ويكرر المعنى ذاته متكئا على التناص الديني أيضا:[3]

ولقَاب قَوسينِ اعتلا لمَّا دَنا أَو كَان أَدنى والمُهَيمنْ أَعلمُ

ولـم يختلـف ابـن حجـر فـي نبوياتـه كثيـرا عـن شـعراء عصـره فـي توظيـف الصـورة والتشـبيه لتوضيـح معانيـه فـي وصفـه للنبـي عليـه السـلام وصحابتـه والتابعيـن ؛ ولهـذا كثـرت فـي صـوره وتشـبيهاته ألفـاظ البـدر والشـمس والقمـر والغيـث والبحـر وغيرهـا، واللافـت هنـا

(1) التعالق النصي في الخطاب الشعري مقارنة نقدية في المرجعية الثقافية للقصيدة المملوكية: يوسف إسماعيل، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، عدد 9، 2003، ص 27.

(2) ديوان ابن حجر: ص 25.

(3) ديوان ابن حجر: ص 5.

أن توظيف مثل هذه التشبيهات والصور عند ابن حجر لم يكن معقدا وإنما بسيطا جدا، إذ يمكن أن يلحظ المتلقي صورة المشبه والمشبهة به ووجه الشبه بينهما، وهذا الأمر يكثر في شعر المديح النبوي بشكل عام، فابن حجر يشبه أثر معجزات النبي عليه السلام ومدى انتشارها، وكيف أضاءت طريق المؤمن، بالشمس التي تشرق فتضيء الطريق التي يراها الناس كلهم، يقول:(1)

ذِي المُعجِزاتِ فكلُّ ذي بَصرٍ غدا لِصوابِها بالعَينِ ذا تَصويبِ

كالشَّمسِ ضَاءتْ للأنامِ وأشرقتْ إلا عَنِ المكْفوفِ والمَحجوبِ

ويبدع ابن حجر في رسم صورة أخرى عندما صور الرسول الكريم بالغيث في كرمه وعطائه، وفي الردى والحروب ليثاً على أعدائه، وهي صورة فريدة جمعها في بيت واحد:(2)

المُصطَفَى المُرتَقِي الأَفلاكِ مُعجزةً وكانَ في الحَربِ بالأَملاكِ مُرْتَدَفا

اللَّيثُ والغيثُ في يَوميْ نَدىً وردىً والصَّادقُ الفعلِ في يَوميْ وَغا ووفَا

ولا ينسى ابن حجر أن يخص أصحاب النبي عليه السلام بصوره وتشبيهاته، فوجوههم كالدر مشرقة بعد أن أصبحوا هداة مهديين:(3)

وُجوهُ أَصْحابهِ كالدُّرِّ مُشْرقةٌ إذا رأَيتَ امرأً عن هَديِهم صَدَفا

ويرى ابن حجر النبي عليه السلام قمرا منيرا أطل بنوره في معركة بدر وقد بدد ظلمة الكفر بالإيمان، كما أنه يرى أصحابه نجوما بفضل ما أصابهم من أثر دعوته، يقول:(4)

بَدا قَمرا بِبدرٍ في نُجومٍ مِن الأَصحابِ أهلِ الاقْتِداءِ

ويبدو أن فكرة الجمع بين أكثر من صورة أو تشبيه في البيت الشعري الواحد قد

(1) المصدر نفسه: ص 9.

(2) ديوان ابن حجر: ص 13.

(3) ديوان ابن حجر: ص 14.

(4) المصدر نفسه: ص 25.

استهوت ابن حجر، فأصحاب النبي الكريم أيضا بحار في عطائهم وجودهم، وهم أسود قوية مقدامة في بلائهم وبأسهم على أعدائهم:[1]

فَإِذا سَخُوا كانُوا البِحارَ وإِنْ سَطُوا كَانوا الأُسودَ أو السّراة الصيِّدا

وفي بعض صور ابن حجر وتشبيهاته يبرز أحيانا ملمح التشخيص والتجسيم، فالغيث يغترف من جود النبي الكريم عليه السلام، والليث يقر بشجاعته عليه السلام:[2]

فالغَيثُ من جُودِه في الجَدبِ مُغتَرِفاً كاللَّيثِ مِنْ بأسِهِ في الحَربِ مُعترِفَا

ويكثر عند شعراء المديح النبوي وابن حجر أحدهم توظيف المحسنات البديعية بأنواعها المختلفة، إذ إن هذا الغرض الشعري يعد بيئة خصبة لهذه المحسنات التي يُتكأ عليها كثيرا في إبراز المعاني وتحقيق الجرس أو الإيقاع الموسيقي، بصرف النظر عن وجود الصنعة فيها، فابن حجر يلجأ إلى توظيف الطباق مثلا لإظهار حسن الشيء عند إظهار ضده في المعنى، كقوله:[3]

وهُمُ الأَحبةِ إن جَفَوْا أَو واصَلُوا والقَصدُ إنْ أشْقَوْا وإن هُمْ أَنعَمُوا

وإنْ واصَلوا فاللَّيلُ أبيضُ مُشرقٌ أَو قَاطعوا فالصُّبحُ أسودُ مُظلِمُ

وقوله معتمدا على الطباق أيضا في إظهار المعجزات التي رافقت مولد النبي الكريم عليه السلام:[4]

هذا وآمنةٌ رأتْ نَاراً لها بُصرَى أَضاءتْ والدَّياجِي تُظلِمُ

ويعتمد ابن حجر كغيره من شعراء عصره في المديح النبوي على السجع كثيرا، وقد كان أحيانا كثيرة يقصده قصدا تحقيقا للجرس الموسيقي، وتأكيدا للمعنى الذي يعرض إليه، ومن ذلك قوله: [5]

(1) ديوان ابن حجر: ص 20.
(2) المصدر نفسه: ص 13.
(3) المصدر نفسه: ص 3.
(4) المصدر نفسه: ص 4.
(5) المصدر نفسه: ص 5.

ولقَاب قَوسَينِ اعتلا لمَّا دنَا أَو كَان أدنَى والمُهيمنُ أعلمُ

وقوله أيضا:[1]

لولاكَ مَا قلتْ اسْكُبي يا مُقلِتي غَيثاً ويا كَبِدي بِنارِكِ ذُوبِي

وغالبا ما كان ابن حجر يجمع بين أكثر من جنس من المحسنات البديعية في البيت الواحد، من مثل: (الترغيب والترهيب، وعفا ووفا) في قوله:[2]

وبِفتحِ مَكةَ قد عَفا عمَّن هفَا فَأتَوْهُ بالتَّرغيبِ والتَّرهِيبِ

وفي موضع آخر يلتقي كل من الطباق والجناس والسجع في توليفة بلاغية رائعة، أظهر الشاعر من خلالها ما كان يتمتع به النبي عليه السلام من كرم وهيبة وحلم ورقي أخلاق، يقول:[3]

مُبِيدُ العِدى مُولِي النَّدى مَع الرَّدى مُبِينُ الهُدى مُرْدِي العِدا واسِعُ الجَدَا

فرجٍّ نَداه إنــهُ الغَيثُ فـــي النَّدى وخَفْ من سطَاه إنَّه الليثُ فـي العِدا

حَلِيمُ فقيسٌ فـــي النَّـــديِّ مُجَهَّلٌ كَرِيمٌ ودَعْ ذِكرَ ابنِ مَامةَ فِي النَّدى

فَكم حَمِدتْ منـــهُ الفَوارِسُ صَولةً وعَـــاد فكانَ العَودُ أحْمَى وأحْمَدا

لقد جاءت نبويات ابن حجر من الناحية الفنية متشابهة إلى حد كبير مع نبويات غيره من شعراء عصره، وقد بدا هذا التشابه واضحا في ألفاظه وأساليبه وصوره وتشبيهاته ومحسناته البديعية وتناصه الديني، حتى غدا في هذا الباب مقلدا لا مجددا، وإذا ما ظهر هناك بعض ملامح التجديد وبخاصة في بناء النص الشعري فإنه قد تميز بذلك عن غيره من الشعراء العلماء الذين نظموا في شعر المديح النبوي

(1) المصدر نفسه: ص 8.

(2) المصدر نفسه: ص 9.

(3) ديوان ابن حجر: 28–29.

الخاتمة :

تبين فيما سبق أن ابن حجر العسقلاني _ أحد علماء عصره وأشهرهم _ قد كان حافظا لكتاب الله عز وجل ملما بعلومه وعلوم الحديث النبوي الشريف، وهو إلى جانب اهتماماته الدينية قد نظم الشعر فأجاد فيه وأحسن، وبخاصة شعر المديح النبوي طلبا لنيل شفاعة النبي الكريم يوم يشفع للخلائق، وتقربا إلى الله عز وجل مغفرةَ لذنوبه، فجاءت نبوياته سجلا حافلا بذكر صفات النبي عليه السلام ومعجزاته، وما رافق مولده من آثار وعلامات كونية، وتحدث أيضا عن غزواته وإسرائه ومعراجه، وأخلاقه ومكانته بين الرسل، كما أنه قد خصَّ أصحابه والتابعين بمديحه مبينا فضلهم في نصرة دعوته ورسالته، كما أنه بسط القول في الحديث عن أصحاب كتب الحديث النبوي الشريف مصرحا بأسمائهم وأسماء مصنفاتهم، من مثل البخاري ومسلم وأبي داوود وغيرهم.

وقد كان ابن حجر في طرحه لكثير من هذه المضامين والمعاني مقلدا لشعراء عصره ؛ لأن الشخص الممدوح واحد عند جميع هؤلاء الشعراء، أخلاقه ومعجزاته ومكانته وغزواته واحدة، لكنه قدَّم بعض الموضوعات والمضامين التي يمكن اعتبارها من باب التجديد، وذلك أنها لم تطرح عند غيره، وبخاصة حديثه عن صحابة النبي الكريم والتابعين وأصحاب كتب الحديث ومصنفاتهم.

وفي الدراسة الفنية اتضح أيضا أن ابن حجر لم يختف كثيرا عن شعراء عصره ممن نهضوا بموضوع المديح النبوي، سواء كان ذلك في بساطة الألفاظ وسهولتها وخلوها من الغريب، أو في صوره وتشبيهاته ومحسناته البديعية وتناصه الديني وأساليبه وعباراته، ألا أنه قد تميز نوعا ما عنهم ببعض الجوانب الخاصة ببناء النص من حيث المقدمة الغزلية وما جاء فيها من اختلاف، أو في خاتمة القصيدة التي كانت تنتهي أحيانا بالحديث عن أحد الكتب التي قرأها.

وتجدر الإشارة إلى أنه يمكننا أن نصنف ابن حجر في نبوياته مقلدا لا مجددا، وما أظهرته الدراسة من مظاهر التجديد لا يشكل ظاهرة، بل إن ما جاء به من تجديد يقارن بما ورد عند غيره من العلماء الذين نظموا شعرا في المديح النبوي.

Ibn Hajar Al-Asqalani's Poems in Praise of the Prophet (BPUH) - between Imitation and Innovation: an Objective and Artistic Study

Maher Ahmed Mobideen

College of Arts, Humanities & Social Sciences - University of Sharjah

Sharjah - U.A.E.

Abstract:

This study deals with the aspects of imitation and innovation in the poems of Ibn Hajar al-Asqalani that introduced his book of poetry and that he wrote in praise of the Prophet Mohammed (Blessings and Peace be Upon Him). Ibn Hajar was one of the most prominent scholars of his time, and he wrote poetry for various purposes. As Ibn Hajar was a reciter of the holy Quran and a scholar of its sciences and the sciences of the Prophet's Hadith, he simplified the word in praise of the Prophet (BPUH). Therefore, he came up with contents that abounded in references to the life of the Prophet, his miracles, the effects of his birth and his moral qualities as well as his battles. He also included the companions of the Prophet in his praise. He was often imitating the poets of his time, but again innovating objectively and artistically in other times. The study also examined the most prominent artistic features that characterized the poems that Ibn Hajar wrote in praise of the Prophet (BPUH). This includes the study of words, methods, artistic images, and similes in addition to other figures of speech and poem structure. The researcher found that Ibn Hajar frequently imitated the poets of his time, but made some innovations especially in relation to the structure of the poetic text which was evident through the analysis of his works.

Keywords: Ibn Hajar, Poems in praise the Prophet (PBUH), Imitation, Innovation, Artistic Images, Simile.